مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

المعارف الإنسانية بين التنميط والتثاقف... مقاربات أنثروبولوجية

Human knowledge between stereotyping and cultivation... Anthropological approaches

ط. صافية بوزارة
sofi.zeralda@gmail.com
مخبر مشكلات الحضارة والتاريخ
أ. د طالب مناد
جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر 2

تاريخ الإرسال: 23–06–2020 تاريخ القبول: 21–09–2021

I. الملخـــص:

تلّح الدراسات الإنسوإجتماعية من خلال بحوثها الحديثة على ضرورة المحافظة على الخصوصيات الثقافية التي تُميّز المجتمعات الإنسانية على اختلاف أعراقها ومعتقداتها، ويمكن أن نخص بالذكر علم الأنثروبولوجيا، هذا الأخير الذي أحدثت بحوثه النظرية والتطبيقية ثورة في مفاهيم الثقافة وطرق اكتسابها، فهاذا الميدان استطاع إلى حد كبير تبرير الاختلاف كسمة إنسانية طبيعية.

من هذا المنطلق يأتي هذا البحث الفلسفي ذي البعد الاجتماعي ليُسهم في بلورة هذا التوجه من خلال تبنّيه مجموعة من المقاربات الأنثروبولوجية للوصول إلى ذات النتيجة، وذلك باعتماده المنهج التكاملي في البحث.

الكلمات المفتاحية: تنميط؛ أنثروبولوجيا؛ إنسان؛ الثقافة؛ الاختلاف.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

I. ABSTRACT:

Human and social studies insist, through its recent research, on the necessity of preserving the cultural peculiarities that characterize human societies, and we can mention anthropology, which is indicated through its research that cultural difference is a natural human feature.

From this standpoint, this philosophical research with a social dimension come to contribute to this approach by adopting a group of anthropological approaches to reach the same result, by adopting the integrative approach in the research.

Keywords : stereotyping ; anthropology; humain; culture; crisis

1. المقدمـــة:

إن المعارف الإنسانية معارف متداخلة ومترابطة بشكل كبير، وهي قديمة قدم الإنسان نفسه، وغالبا ما تُكتسب هذه المعارف عن طريق التواتر، إما شفاها، أو تدوينا وكتابة، وذلك لترسيخ المعنى وحفظه، لذا ارتبطت النصوص المكتوبة دوما بالمؤسسات الإيديولوجية التي تسعى إلى المحافظة عليه والتقيد به، كالمؤسسات الدينية والتعليمية[1]، لأنه سيشكل فيما بعد تراث أمة ورأسمالها الفكري، وهو الأمر الذي يفسر طابع الإنسان الثقافي.

بالإضافة إلى ضرورة التقيد بهذه المعارف، تمثل الكثير من هذه المكتسبات نقطة ارتكاز فعلية تحدد المجال الفكري الذي ينضبط فيه الجيل اللاحق، ولعل النقطة المشتركة

[1] – عبد السلام بنعبد العالي، هايدغر ضد هيغل، التراث والاختلاف، دار التنوير، بيروت، ط2، 2006، ص24.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

لدى جميع الإيديولوجيات والنزعات والثقافات الإنسانية هي نزوعها إلى تقديس معارفها*على الرغم من أن الدراسات الجديدة تحاول رسم حدود المقدس والدنيوي، حدود العام والخاص...

ومع تصاعد وتيرة العنف والصراع واسترجاع مفاهيم الأثنوسانتريا[1] والعنصرية ذات التوجهات المختلفة لدى الإنسانية المعاصرة، وطغيان الجانب المادي على النزعات الإنسانية الذي ما لبثت تثير الباحثين والمنظرين على اختلاف مشاربهم ومجالاتهم المعرفية، أصبح من الضروري استحداث وسائل ومناهج فكرية تبرز أبعاد الإنسان وتوجهاته، ومن ثم تقرير الاختلاف والتمايز، لا كحق مُشرعن في دساتير قانونية رمزية، وإنما كحقيقة طبيعية وبديهة أنثروبولوجية.

وفي ذات السياق، يحاول هذا البحث في إطار فلسفي تقصي أسباب هذه الشرعية، من خلال وضع مجموعة من المقاربات، التي يمكن من خلالها المساهمة في بلورة وتحديد وعي جديد لإنسان ما بعد الحداثة، الذي لا يزال يتخبطه الصراع العرقي والمذهبي والديني، وانطلاقا من هذه المقدمة يمكن طرح الإشكال التالي:

كيف يمكن تبرير التمايز الثقافي لدى المجتمعات الإنسانية؟ بعبارة أدق: ماهي أهم الخلفيات التي من خلالها يمكن تأسيس شرعية طبيعية تبرر الاختلافات الثقافية والفكرية للإنسان؟

[1]– يعود اختراع هذا المصطلح إلى العالم الأمريكي وليام سومر، في دراسته الواسعة عن العادات في 1906، وقد وضع له التعريف التالي: "الإثنويسانترية هي اعتقاد مجموعة أنها مركز يؤثر فيما حوله، وأن لها الحق في قياس وتقييم كل شيء انطلاقا من ذلك الاعتقاد، وينطبق وصف الإثنوسانترية على كل مجموعة تمجد نفسها، وتزعم تفوقها في كل شيء، ومنذ البداية على غيرها، وتنظر إلى عاداتها على أنها الصحيحة والأفضل وما سواها أدنى درجة أو مرفوضة، أنظر كتاب المسألة الثقافية، لمحمد العربي ولد خليفة، ص29وص30.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

2. التأطير الإبستيمي للأنثروبولوجيا

"إن لفظة أنثروبولوجيا Anthropology، هي كلمة إنكليزية مشتقة من الأصل اليوناني المكوّن من مقطعين، Anthropos ومعناها الإنسان، ولوغوس logos ومعناها علم، وبذلك يصبح معنى الأنثروبولوجيا من حيث اللفظ علم الإنسان، أي العلم الذي يدرس الإنسان"[1].

كما وتُعرف الأنثروبولوجيا أو علم الإنسان –كما سبق ذكره–أيضا بعلم الإناسة، ويتسع هذا المفهوم ليشمل جميع أبعاد الإنسان، ومع تعدد استخدامات هذا اللفظ تتعدد معانيه ومراميه أيضا، هذه الخاصية لا تنطبق على الأنثروبولوجيا فحسب، بل تشمل جميع العلوم "الإنسوإجتماعية"[2] وعلوم المادة الدقيقة.

وترجع البدايات الأولى للتنظير الأنثروبولوجي مع ظهور الكشوفات الجغرافية، وعلى رأسها اكتشاف القارة الأمريكية، ذلك أن مثل هكذا كشوف–وإن كانت ذات مصالح اقتصادية وسياسية–قد مهّدت وهيأت الطريق لولوج حقبة جديدة، حقبة نزع القدسية عن الرموز الذاتية، خاصة وأن سجن الكنيسة ما لبث أن انكسر عندما أدرك

[1]– عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004م، ص13، 14.

[2]– غالبا ما تتداخل تخصصات العلم الإنساني والاجتماعي، مما يؤدي بالدّارس إلى استعمال كلا المصطلحين للدلالة على مفهوم واحد، غير أنه يمكن تبيان الفرق بينهما من خلال التعريف الوظيفي لكليهما، فالعلوم الإنسانية هي مجمل العلوم التي تتخذ من الإنسان موضوع دراسة في جوانبه النفسية، الفكرية والثقافية، أما العلوم الاجتماعية، فهي مجمل العلوم التي تتخذ من الإنسان موضوع بحث، لكن بزاوية اجتماعية، فالمجتمع هنا هو الإطار العام للعلم، وهيكل كلي للموضوع، ولعله هنا الفارق الجوهري بين العلم الإنساني والاجتماعي.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

الإنسان الغربي أن زمن القداسة قد ولى، وأن هنالك أمما وشعوبا ذات طباع مغايرة وثقافات مغايرة، لا يصلها حجاب البابا، ولا تؤمن بالخطيئة[1].

وقد قدمت هذه الكشوفات معلومات هامة عن الشعوب القاطنة في تلك البلاد، أدت إلى تغيرات جذرية في الاتجاهات الفلسفية السّائدة آنذاك، عن حياة البشر وطبيعة المجتمعات الإنسانية وثقافتها وتطورها، وهذا ما أدى إلى تطوير المعرفة الأنثروبولوجية، واستقلالها فيما بعد عن دائرة الفلسفة الاجتماعية[2].

إذن فوقع هذا الاكتشاف كان فكريا وثقافيا مثلما كان جغرافيا، ومع أن هذا العامل الأنثروبولوجي ذو حساسية وأهمية بالغة، باعتباره أحد المحفّزات القوية للنهضة الأوروبية، غير أنه لم يحظ –في الغالب– بالعناية الفكرية اللازمة، بل لم يشر إليه كعامل أساسي في دينامية التغير الثقافي والحضاري بين الشرق والغرب.

1.2 مجالات الأنثروبولوجيا:

ولقد انشطر هذا العلم إلى فروع رئيسية بحسب نظرة الأنثروبولوجيين إلى الإنسان، ويمكن تلخيص فروعه في مجملها على الشكل الآتي[3]:

1.1.2 الأنثروبولوجيا الطبيعية

إن النظرة إلى الإنسان باعتباره كائن حي مخلوق ضمن المخلوقات الأخرى، أدت

[1]– محمد أركون، نزعة الأنسة، جيل مسكويه والتوحيدي، تر: هاشم صالح، دار الساقي، ط1، ص 28.

[2]– عيسى الشماس، مصدر سبق ذكره، ص 8.

[3] –أنظر: كتاب الانثروبولوجيا، مجموعة مؤلفين، تر: محمد عباس إبراهيم، ص18، وكذلك كتاب الأنثروبولوجيا، لمارك أوجيه وجاك بول كولاين، ص7.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

إلى ظهور فرع الأنثروبولوجيا الجسمية أو الطبيعية أو الفيزيقية Physical Anthropology.

ويتداخل موضوع الأنثروبولوجيا الطبيعية كثيرا مع علم البيولوجيا الحديث، لكن موضوع الأنثروبولوجيا الطبيعية يعتمد في غالب الأحيان نتائج دراسات حية وحديثة للجسمية الإنسانية التي تصل إليها البيولوجيا، على أن يتم ربطها بزمكانية معينة، بعبارة أوضح، فإنه لابد من اقتران البحوث والدراسات البيولوجية بمؤشرات تاريخية، وفق ظروف ومتغيرات، توحي بنظرة شاملة عن سيرورة الأنواع البشرية، كجنس كلي أو كفروع، وفق مسار عرقي، يحدد الأسباب المتدخلة في الاختلافات والتنوعات، كتأثير الجغرافية والظروف البيئية، أو أشكال الزواج والتناسب، أو تداخل الأعراق بحروب أو تحالفات.

2.1.2 الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

إن النظرة إلى الإنسان باعتباره اجتماعي بطبعه، يعيش في جماعات مختلفة ساعدت على ظهور فرع الانثروبولوجيا الاجتماعية social Anthropology، وفرع الأنثروبولوجيا الاجتماعية يتداخل مع علم الاجتماع بشكل كبير، حيث أن النظرة المقارنة بين علم الاجتماع وفرع الأنثروبولوجيا تكاد تكون شبه مستحيلة، لاسيما في مجال الدراسات السوسيولوجية العميقة التي تتطرق إلى جميع مجالات الديناميكية الاجتماعية.

وتجدر الإشارة إلى أنه، وتبعًا لتعدد مدارس الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، ظهر الخلاف بين المدارس في التسمية، إذ يعتبر الإنجليز الانثروبولوجيا الاجتماعية علما قائما بذاته، أما ما يدرجه الأمريكيون تحت عبارة الأنثروبولوجيا الثقافية، يصطلح الفرنسيون

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

على الإشارة إليه بالاثنولوجيا أو الاثنوغرافيا* في بعض الأحيان وهم يدرسونها تحت مظلة علم الاجتماع.

3.1.2 الأنثروبولوجيا الثقافية:

النظرة إلى الإنسان على أساس أنه حامل للثقافة وناقلٌ لها عبر الأجيال، ساعدت على ظهور فرع الانثروبولوجيا الثقافية cultural Anthropology، وهذا النوع يُمَكن الباحث من التعرف على آليات التثاقف المختلفة، الإرادية منها واللاإرادية، وسيأتي تبيان أشكالها في مواضع أخرى.

إذن فالأنثروبولوجيا أو علم الإناسة، هو العلم الذي يدرس الإنسان كمخلوق، ينتمي إلى العالم الحيواني من جهة ومن جهة أخرى، الوحيد من العالم الحيواني كله، الذي يصنع الثقافة ويبدعها، والمخلوق الذي يتميز عنها جميعا[1]، وعليه فقولنا أنَ الإنسان حيوان عاقل من وِجهة نظر منطقية، لا يقتصر على النباغة ودرجة الذكاء العاليتين، بل وكذلك في حمله وتوريثه للثقافة، فالثقافة إذن وقف على البشر وحدهم.

وكخلاصة لما سبق، يمكن القول أن الأنثروبولوجيا، هو العلم الذي يدرس الإنسان من جميع نواحيه من حيث هو كائن عضوي حي، يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية، في أطر ثقافية معينة، ويقوم وسلوكات محددة، وهو أيضا العلم الذي يدرس حياة الإنسان في شكلها البدائي والحديث، يحاول التنبؤ بمستقبل الإنسان معتمدا على تطوره عبر مسار التاريخ الإنساني الطويل، كما أنه في حاجة إلى علم التاريخ،

* الإثنوغرافيا Ethnographie: علم موضوعه وصف المظاهر الحضارية لمختلف الشعوب، أما الإثنولوجيا Ethnologie فهو علم يعنى بأسباب اختلاف الشعوب في مظاهرها الحضارية، أنظر: معجم الفلسفة، لمحمود يعقوبي، دار الكتاب الحديث، 2008، ص 9.

[1]– عيسى الشماس، مصدر سبق ذكره، ص14.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

تاريخ الأجناس والأعراق، لفهم هذه التغيرات والتطورات، وفق الطفرات الجينية والفكرية، ولذا يعتبر علم دراسة الإنسان (الانثروبولوجيا) علما معقدا مركبا.

2.2 تفرع الأنثروبولوجيا وانفصالها كعلم قائم بذاته:

إن القول أن علم الانثروبولوجيا قائم بذاته، لا يعني بالضرورة انطوائه على البحوث المتخصصة والأبحاث المتعلقة بصميم العمل الأنثروبولوجي فقط، والدّارس لتاريخ العلوم لاسيما منها العلوم الإنسانية والاجتماعية يكاد يجزم أن مواضيع الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس تخصصاتها المختلفة تكاد تتشابك، يكون هذا جليا عند معالجة موضوع معين من عدة نواح، بل إن البحوث التي يمكن وصفها بالقيّمة هي تلك التي تحاول إحاطة مواضيع البحث من عدة زوايا، وهي ذات الخاصية التي لابد لعلم الكلام أن يمتلكها.

على سبيل المثال، نجد أن العنف كإشكالية راهنة، ذات طابع اجتماعي، فإذا حاولنا تحديد تعداد حقول وزوايا البحث الممكن التطرق لها، فسيحصي الباحث جوانب مختلفة، ينبغي الاشتغال بها، وهو الأمر الذي يخرج الباحث من حقل علم إلى آخر، كعلم النفس، الفلسفة والتاريخ، بل إن تهميش هذه الزوايا ينقص العلمية المطلوبة، فكلما كان البحث عميقا ومفصلا، أمن من النسبية، لاسيما في هذا المجال، مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية التي تفتقر للدقة واليقينية بالمقارنة مع علوم المادة الجامدة.

غير أن الأنثروبولوجيا، شأنها شأن العلوم الأخرى، مر بعدة مراحل ومحطات، مهدت لاستقلاله عن علم الاجتماع، فقد كانت جذور البدايات الأولى للفكر المنهجي الأنثروبولوجي تمتد إلى الفترات التاريخية التي سادت فيها آراء الفلاسفة الأخلاقيين والاجتماعيين، والتي اتسمت بالطابع النظري الفلسفي سعيا إلى الوصول إلى صياغة قوانين ومبادئ عامة كلية وشاملة تصدق على الجنس البشري كله، إلاّ أن الجهود التي

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

بذلت في القرن التاسع عشر، كانت هي البداية الحقيقية لنشأة الفكر الأنثروبولوجي منهجيا، لاسيما وأنها تلازمت مع تغيرات هائلة في المجتمع الأوروبي، وهي الفترة التي وسمت بعصر الآلات والتصنيع والاكتشافات العلمية، واتصال أوروبا بالعالم الخارجي، حيث أقام كثير من العلماء تفسيراتهم عن تطور المجتمعات والنظم الاجتماعية تبعا لفرضيات التقدم التطور[1] .

ولقد سيطرت النظريات الاجتماعية والفلسفية لفترة على البحث الأنثروبولوجي، لكن التسارع الذي ميز تلك المرحلة، أثر بشكل كبير في منحى العمل الأنثروبولوجي، وعليه يمكن القول أن علم الأنثروبولوجيا هو أسرع العلوم تشكلا، من ناحية استقلاله عن البحوث الاجتماعية، أو من خلال الكم الهائل للنظريات المستحدثة في زمن وجيز، بالمقارنة مع علم الاجتماع نفسه، أو العلوم الملحقة به.

ولقد ساهمت الكشوفات الجغرافية مثلما سبق وأن ذكرت في إثراء العمل الأنثروبولوجي، لأنها وسعت من نطاق البحث لاسيما منه الميداني، الأمر الذي أكسب البحث طابعا تطبيقيا، على خلاف ما كان مسيطرا، بفضل الدراسات الموضعية التطبيقية التي مثلت نقلة نوعية في منهج البحث.

3. تأسيس التعددية وشرعية الاختلاف:

بما أن الأنثروبولوجيا تهتم بدراسة الإنسان، شأنها في ذلك شأن العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى، فهي ترتبط ارتباطا وثيقا بالمجتمع الإنساني، حيث تعكس بنيته الأساسية والقيم السائدة فيه، وتخدم بالتالي مصالحه في التحسين والتطوير.

[1] – كتاب الانثروبولوجيا، مجموعة مؤلفين، تر: محمد عباس إبراهيم، دار المعرفة الجامعية، 2003م، ص145.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

ولذلك فالبحث في حقل علم الإنسان يقدم بالإضافة إلى الإحصاء الثقافي والمعرفة الوصفية التحليلية، منطلقات فكرية يمكن أن تساهم بشكل كبير في رفع مستوى الحوار مع الآخر، والوعي بالاختلاف، لاسيما على مستوى التنظير الاجتماعي والثقافي، إذن فالممارسة الأنثروبولوجية، والوعي بآليتها وبنتائجها المعرفية كفيل لحد ما بتقديم نظرة نقدية تحليلية في مستوى تطلعات البحث العلمي.

ولعل من بين المنطلقات الفكرية التي أراها تخدم ذات المسعى، وتؤسس لمفهوم التعددية الثقافية، ما يمكن أن أدعوه مقاربات أنثروبولوجية، وهي في أبسط أشكالها تشكل إسقاطات تمثيلية لمكاسب علمية في شرعنة التعددية والاختلاف.

1.3 مقاربة الأنثروبولوجيا الطبيعية:

إن موضوع الأنثروبولوجيا الطبيعية، كأحد تفرعات الأنثروبولوجيا، التي عادة ما يشار إليها أيضا بالأنثروبولوجيا الجسمية، تكشف في دراستها للمسار التطوري للعرق البشري عن الخفايا العجيبة للكائن البشري على غرار أغلبية الأنواع من الحيوان.

والذي يعنيني ويخدمني في مثل هكذا مقاربة أنثروبولوجية –وهو أيضا مجال علم البيولوجيا–، هو تلك الآلية التي يتم بها توارث الصفات الجسمية، أي الصفات الوراثية، ولتوضيح هذه المقاربة وربطها بالموضوع المراد التماسه، وجب تبيان المسار التطوري للجنس البشري بلغة علمية مبسطة:

يقال أن الجنس البشري مر بعدة أشواط، ونال تفرعات رهيبة، سواء أكان الدارس من المؤمنين بنظرية داروين في التطور أم لا، إلا أن الأمر المؤكد هو أن المسار التطوري للجنس البشري قدم آلاف التفرعات العرقية مما يثبت أن التناسخ الطبيعي غير متاح للإنسان، حتى وإن كانت ظاهرة التناسخ موجودة فعلا في الطبيعة، وهو لجوء

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

الكائن الحي إلى تكرار نفسه بصورة تلقائية، تمارسه الكائنات الحية وعلى رأسها البكتيريا.

وما هو معروف أن الإنسان يولد من أبوين، يحمل كلاهما نفس عدد المورثات، ويكون الاختلاف في الخريطة الوراثية للأبوين رهيبا ومعقدا، ومتباينا لدرجة بالغة، مما ينشأ للبشرية كائنا مختلفا كل مرة، وحتى وإن حمل المولود بعض صفات أحد الوالدين، وورث عنه جينا وراثيا معينا، فلن يستقيم له حمل كل المورثات، لأنه نتاج شخصين وليس شخصا واحدا.

بالإضافة إلى ذلك، فإننا نجد أن أية سلالة حية تقوى بالتباين، ويمكن التعبير عن هذه الفكرة بالهندسة الوراثية*، التي تزيد من التباينات والاختلافات بين الأفراد أو بين المخلوقات الحية، هذا التباين الوراثي يعني إنتاج أفراد غير متطابقين، على عكس الاستنساخ الذي يمكّن إنتاج أفرادٍ متطابقين، يحملون نفس التركيب الوراثي تقريبا، والاستنساخ يعمل ضد هذه التباينات، وهو عكس الهندسة الوراثية تماما *.[1]

* أن في كل خلية حية يوجد سر الحياة المادية والذي بواسطته يحصل النسخ والنمو والتكاثر وهو الكروموسومات أي مواضع حفظ المعلومات، والكروموسومات أو الحمض النووي (DNA) يتكون من سلاسل غير متجانسة بها أربعة أنواع من التوكليوتيدات (A-T-C-G) هذه الأنواع الأربعة تمثل أحرف اللغة الجينية، حيث تكتب تخزن بها المعلومات التي تنقل في عملية النسخ عند تضاعف الحمض النووي وبالتالي يمكن اعتبار (DNA) أنه العنصر الذي يمثل الحياة، لأنه العنصر الذي يحمل المعلومات لنسخ نفسه وإنتاج البروتينات وبالتالي يسبب التكاثر والنمو، فالتمايز يحصل نتيجة امتزاج الـــ DNA للذكر والأنثى أو نتيجة الطفر الحاصر أثناء عملية النسخ بالتحديد، أو الطفر نتيجة قصف إشعاعي(أنظر كتاب وهم الإلحاد، لأحمد الحسن، ص66).

[1] – كارم السيد غنيم، الاستنساخ والانجاب، بين تجريب العلماء وتشريع السماء، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م، ص139.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

ثم إن المسار العرقي يتخذ تغيرات أخرى، وذلك من خلال الطفرات الجينية، التي يتم من خلالها تنويع الخريطة الجينية، إذ تسمح الطفرات للكائن الحي أن يتعايش مع العالم الخارجي ومع محيطه الطبيعي على أكمل وجه، أي "التكيف" بلغة البيولوجيين، وقولي الكائن الحي يشمل جميعها ماعدا تلك التي تتكاثر بالاستنساخ.

وأقرب مثال يمكن أن يوضحها هو التمايز العرقي بين سكان أفريقيا وسكان أوروبا وسكان آسيا، وأذكر اختلافات لون البشرة، ولون العينين، وشكل الأنف، وغيرها من الاختلافات الظاهرة لأيٍ كان، فلو كان التناسخ متاحا لكان الإنسان مجرد فوتوكوبيا عن نموذج إنسان واحد.

وما يهمني هنا هو القانون الطبيعي المبني على التباين والتطور والاختلاف الذي يؤدي إلى تحسين الكائنات الحية، ومن بينها الإنسان من خلال الطفرات، الطفرة الجينية هي إذن، سر استمرارية الكائن الحي، والعرق البشري بشكل خاص، فبالإضافة إلى مطلب تنويع الخريطة الجينية، تسمح الطفرة بتجاوز عوائق الجيل السابق، ليسهل عليه التأقلم مع العالم الخارجي.

موضوع الطفرة هذا، يماثل إلى حد كبير ما يقدمه علماء التقنية الحديثة، وذلك عند قيامهم بتحسينات نوعية في أي منتج، ليتلاءم مع متطلبات العصر وحاجات الإنسان المتغيرة والمتزايدة، وهكذا هي الحال بالنسبة للكائن البشري الذي تحاول بنيته الجسمية التأقلم مع الواقع المتغير عن طريق سلسلة من الطفرات والتغيرات وهو ما يفسره التباين في شكل الإنسان.

وبالحديث عن التأقلم الجسمي للإنسان، نجد ذات الصيغة في التأقلم الفكري، بل إن أكثر المشاهد ملاحظة عند دراسة تاريخ الفكر البشري، هو ذلك التواتر المعرفي المتاح للعقل الإنساني، فعندما نتكلم عن الإنسانية، فنحن نتكلم بالضرورة عن ثقافة وتراث

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

إنسانيين، ومعرفة متراكمة، ولا نبالغ إذ نقول أن لا إنسان بدأ من الصفر، بل غالبا ما يبدأ من النقطة التي انتهى إليها أسلافه، وهذا توريث لجينات فكرية بالشكل نفسه عند توريثه لجينات وراثية.

كما أن الإنسان لا يكتفي بما لديه، بالنظر لطبيعته المفكرة، ويحاول جاهدا تقديم لمسته الفكرية الخاصة، التي تعكس تجاربه الحياتية، كتحيينٍ لمعارفه الموروثة، ويمكنني أن أطلق على هذه العملية "الطفرات الفكرية"، إذ أنها تؤدي ذات دور الطفرات الجينية، بتمكين الإنسان من الاستعانة بتراث أسلافه، وكذلك تمنحه تجاربه الشخصية، وإبداعه المستمر حصانة من المآزق الفكرية، فكما يضمن الكائن استمرار نسله بالطفرات، يضمن الفكر تطوره كذلك، بنفس الطريقة، وعلى نفس الشاكلة.

ولذلك فما يستفاد منه في هكذا مقاربة، هو التأكيد على حتمية التغير والاختلاف كنتيجة طبيعية، وإغفال حتمية التغير هذه سبب قوي من أسباب الانحطاط الفكري، إذ أن التغير هو توليفة التطور، الذي بدوره يمثل توليفة الاستمرار، ومنه فعلى كل باحث لاسيما في مجال الثقافة والتراث الإنسانيين، أن يضع نصب عينيه مثل هكذا أساسيات.

كما أن هذه المقدمة تقودنا إلى نتيجة منطقية، مفادها أنه إذا كان التغير قانون الكون ونظامه – والذي مثلت الجسمية الإنسانية أحد تجلياته–، فإنه يمكن اعتبار أي محاولة لكسر هذا النظام محاولة ستبوء بالفشل، والمخطط أدناه يوضح هذه الرؤية:

الكائن الحي ⟵ نسخ اللـ DNA ⟵ تناسخ ⟵ الهلاك

الكائن الحي ⟵ نسخ اللـ DNA + طفرات ⟵ تباين واستمرار

ومقاربة ذلك هي:

الفكر ⟵ تنميط ⟵ اجترار ⟵ تخلف فاندثار وزوال

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

الفكر ⟵ تثاقف ⟵ اختلاف ⟵ استمرار

2.3 مقاربة الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

إن ما أحاول الإشارة إليه في استخدامي المقاربة هو التعرف على مدى احتياج الفرد للجماعة، ومن ثمة تبريرات بعض أشكال التنميط الاجتماعي والتثاقف القسري الذي تمارسه كل أشكال المجتمعات، والتي تكشف عن أبعاد وظيفية للمؤسسة الاجتماعية من خلال عنصر التنشئة والتثقيف، على أن التثقيف متعلق بالمقاربة الثقافية.

فإذا اعتبرنا كل إنسان، في أحد معانيه، فيلسوف حياته، يصنع أفكارا عن الحياة، بل ويعزف مقاطع تجاربه الخالصة، فإن كل هذه التخمينات قد تكون لها أهميتها، لما قد تظهره لنا من انفرادا وإبداع في الحياة[1]، وهذا الانفراد دعوته متعلق بنصيب الحرية الفكرية والفاعلية العقلية (الطفرات الفكرية)، التي تنتج سيرورة وانفرادا وابداعا في الحياة، هذا الطرح في مجمله يتعارض مع الغاية التي تبرر وجود مجتمع أو مجموعة عرقية، فما حاجة الفرد للجماعة؟ وإلى أي مدى يؤثر ذلك في فاعلية الشخص الإنساني؟

إن فاعلية الشخص الإنساني تتعلق بالقوة الفكرية التي يمكلها، والتي تمثل الحد الفاصل بين النوع الإنساني والحيواني، فنمط عيش الإنسان يقتضي منه ابتكارا مستمرا واستخداما متواصلا لفعاليته العقلية، فلقد استطاع عبر مسار طويل وتجارب هائلة أن يتحكم في حياته، بتحكمه في الطبيعة، وهذا غير متاح للحيوان، وهو ما يبرر مقولة أن الإنسان استطاع تطويع الطبيعة بدل أن يطاوعها.

وأوضح مثال عن تأثير القوة الفكرية في نمط عيش الإنسان، ما نجده في علاقته مع الموارد الطبيعة التي يعيش بها، فبعد أن كانت تلك العلاقات علاقات تبعية وسلبية من

[1]–Bernard Groethuysen, Anthropologie philosophique, librairie gallimard, Parie NRF,1952, P8 .

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

جانب الإنسان، أصبحت علاقات تعاون وتبادل، وبدأ الإنسان يتدخل عنصرا فعالا في تشكيل الحياة، فالثمار التي كان يقع عليها دون تخيّرٍ لزمنها ولا تحديدٍ لمكانها ولا انتقاءٍ لمذاقها ولا ضبطٍ لمقدارها، أصبحت الآن مادة يصنعها في زمان يعرفه، ومكان يحدده ونوع يتخيره ومقدار يكفيه ويغنيه فيما وراء الكفاية، فينمو لديه فائض تتراكم فيه الثروة، وتستقر به الملكية الفردية[1].

ومن جانب آخر، نجد أن الإنسان في حاجة ماسة إلى الجماعة، إذ أنه لا يحسن معيشته لو انفرد يعيش لوحده، فلا يتيسر له تدبير حاجاته وضروراته، بل لا يمكن أن ينال الإنسان الكمال الذي لأجله جعلت الفطرة الطبيعية، إلا باجتماعات جماعات كثيرة متعاونين، يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه الآخر في قوامه[2]، وذلك في إطار أدوار اجتماعية محددة، لتبلغ الجماعة ذلك التكامل.

إن هذه المقدمات تقدم الأرضية التي على أساسها يمكن أن ترتكز المقاربة الاجتماعية، ويمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

أولا: حاجة الفرد إلى الجماعة، كحاجة الصانع لمادة أولية، على اعتبار أن لا إنسان بدأ من الصفر، إذ تعبر المكتسبات الاجتماعية عن تجارب وخبرات حياتية، وما اختلاف أنماط عيش الإنسان واختلاف ثقافاته إلا لاختلاف التجارب، وما يوضح هذه الفكرة التباين الثقافي بين مجتمعات الشمال ومجتمعات الجنوب، ومجتمعات البدو والمجتمعات المدنية، والفارق طبعا يعود إلى تجاربها ونمط عيشها، وكذلك بيئتها، مثلما سبق وأن أشرت في مقاربة الأنثروبولوجيا الطبيعية، وما أبتغي تبيانه هنا هو أن التجارب

[1]– محي الدين صابر ولويس كامل مليكة، البدو والبداوة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1986، ص17.

[2]– جيرار جهامي، موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب، ناشرون، مكتبة لبنان، دت، ص5.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

الحياتية هي التي تحدد طبيعة المجموعة العرقية وأنساقها والتي بدورها تحدد ثقافته الفرد وتوجه ثقافة النشء.

ثانيا: ميل الإنسان إلى تقديس مكتسبات الجماعة التي ينتمي إليها، وخضوعه القيمي والفكري والعقدي لها، وبالتالي زيادة وتيرة التنميط، وتكمن أهمية الجماعة أيضا بالنسبة إلى الفرد في أنها تمثل جسرا ثقافيا يربط الماضي بالمستقبل، فتمد العشيرة أو المجموعة العرقية بتعاليم متنوعة طوال مدة تنشئة الفرد بدءا من مراحل عمرية جد متقدمة، على أن عملية نمو الشخصية وتكوينها لن تقتصر على السنوات الأولى من عمر الطفل فقط، وإنما هي، من حيث ارتباطها بالنسق القرابي*، عملية مستمرة يؤطرها كبار السن[1].

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح متعلق بمصير العقل الإنساني في ظل هذه الوصاية الفكرية، فإذا كان المجتمع وكبار السن المرجعية الأساسية لأي تفكير، فأي دور بقي للعقل والإبداع الفردي، فالميل إلى الاتكال على الجماعة في كل صغيرة وكبيرة سيقضي لا محالة على روح الإبداع والبذل، وستتولد من جراء ذلك لدى المجتمعات تلك العصبيات الثقافية أو نرجسية الثقافة.

3.3 مقاربة الأنثروبولوجيا الثقافية:

إن دراسة أي تراث إنساني، تتطلب التطرق إلى لماهية الثقافة، وآليات تشكلها، وهو حيز الأنثروبولوجيا الثقافية، بيد أن التماس وحدة عضوية، أو وحدة فكرية، أو

* النسق القرابي يعتبر الموجه الأساسي في تكوين شخصية الفرد، والغالب أن يحتفظ لكبار السن بهذه الدور، لأنهم ببساطة أكثر دراية من غيرهم، لكثرة تجاربهم الحياتية.

[1] – Bernard Groethuysen, the previous reference, P8

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

وحدة إنسانية، يعني للكثيرين البحث عن وحدة ثقافية، فهل توحيد المجتمعات الإنسانية في إطار الثقافة أمر ممكن؟ وإذا كان كذلك، فما متطلباته؟

وجب في البدء ضبط مفهوم الثقافة، الذي لا شك أنه يصعب التوصل إلى معنى كامل وشامل لها، فقد أحصي حوالي ثلاثة مائة تعريف لكلمة "ثقافة" في اللغة الإنجليزية لوحدها، كما قد تزامن استخدام كلمة ثقافة (kultur) عند الألمان مع مقابلها اللغوي في فرنسا (culture) ليعني الخصوصية التي تميز شعبا وأمة قومية ذات عبقرية وسيادة[1]، في حين استعمله الفرنسيون للدلالة أيضا على الحضارة، مما يوضح أن هنالك اختلافا استعمالات هذا المصطلح**.

وتعرف الثقافة أيضا على أنها "جملة المعارف التي يكتسبها الفرد فتُكسبه إصابة في الحكم وحسا ناقدا وسلامة في الذوق وبعدا في النظر، ورشادا في التصرف "[2]، وهذا التعريف يوافق جدا ما سبق وأن أشرت إليه، في موضوع التأقلم أو التكيف مع الواقع، ومع المحيط الخارجي، إذ أن الثقافة تحمل بعدا وظيفيا إلى جانب كونها ذات بعد إنساني،

[1]– محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2003، ص24.

* يعرّف التثاقف على أنه هو مجموعة الظواهر الناجمة عن اتصال مستمر ومباشر بين مجموعتين من الأفراد ذوي ثقافات مختلفة، ينتج عنه تغيرات في المنوالات الثقافية لإحدى المجموعتين أو لكليهما (أنظر: كتاب المسألة الثقافية، محمد العربي ولد خليفة، ص56).

** التنميط الثقافي: مصطلح يقصد به عملية نسخ فكري صارم، وتعطيل فطرة الإنسان الفكرية وقمع قواه الإبداعية، تمارسها بعض المجتمعات على أفرادها، وينتشر هذا الفعل في المجتمعات الدينية، التي تلجأ إلى الحفاظ على مكتسباتها المقدسة، فتلزم أفرادها بالتطبيق دونما تفكير.

[2]– محمود يعقوبي، معجم الفلسفة، دار الكتاب الحديث، 2008م، ص23.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

ولذلك نجد أن الثقافات هي لفظ جمعٍ بالتعريف، لأن ماهية كل ثقافة هي تخصيص ما يعيشه وما يتَمثله قوم بعينهم، الثقافات إذن انعكاس للهويات المختلفة.[1]

وتتدخل عدة روافد اجتماعية وسياسية واقتصادية، في إكساب الفرد ثقافة، ويطلق على تلك العملية مصطلح التثاقف*، كما يتسع التثاقف أيضا، ليشمل عمليات التلقين الأسري[2] والتربوي، ولذلك فإن الثقافة تحمل صفة الاكتساب.

وإلى جانب دور الأسرة في التثقيف–التنميط، نجد أن الثقافة قد تنتعش –لاسيما الثقافات المنفتحة– بعدة روافد، فالفتوحات الفكرية والفنية والأخلاقية وكذا أساليب التجارة والمبادلات والتحالفات، كلها، تؤدي إلى التلاقح الفكري والثقافي، لذلك فإن الثقافات متداخلة الروافد، ففي كل ثقافة شوائب، ولذلك فلا وجود لعذرية ثقافية، حتى عند الأقوام المنعزلة.[3]

فهل من الممكن التحدث عن وحدة ثقافية في ظل التنميط الثقافي**؟

بداية أجد أن الحديث عن الوحدة الاجتماعية أو الثقافية أو الفكرية أو العقدية ضرب من الخيال، لأن الأمر مناقض للطبيعة البشرية التي فطرت على التغير المستمر، بل تعتبر أي محاولة لقمع هذا التغير تهديدا اتزان الهويات الثقافية.

---

[1]–René Bureau, Anthropologie, Religions africaines et christianisme, Ed Kharthala, Paris ,2002 , p13 .

[2]– يبدأ اكتساب الفرد للثقافة بمراحل عمرية متقدمة، عندما تحاول الأسرة تحاول إتباع نهج تربوي خاص، وفق نمط تفكير محدد وقواعد محددة، فإن هذا النمط يتماشى مع مكتسبات المجموعة، ومجموعة القيم السائدة، وهذا الفعل في حقيقته يقود إلى أمرين اثنين، الأول نزوع المؤسسات الفكرية إلى تنميط النشء في قالب واحد، والثاني هو أن كل فرد سيكون أقرب إلى مجموعته، أبعد عن المجموعات الأخرى.

[3] – René Bureau, same reference , p14 .

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

فعلى المستوى الفردي نجد أن المجتمعات المتخلفة، تلجأ إلى كبح متعمد للفرادة والتميز الفكري، من خلال الالغاء القسري للتباين الثقافي داخل المجموعة العرقية الواحدة، وذلك من خلال اعتماد التجارب السابقة المنسوخة، لشخوصا ثقافية مكررة، وفي هذه الحالة يكون الفرد متلقيا لا متفاعلا، فينخرط طوعا في المجموعة، متبنيا معتقداتها، ولاحقا مدافعا عن مكتسباتها.

وترجع النظريات السيكولوجية والسوسيولوجية مسألة الانخراط إلى عاملين: العامل النفسي، تمثله الطمأنينة والرضا التي تَنْتاب الفرد المُنمط من جراء اتكاله ورضاه بالأفكار الجاهزة التي أخذها من لدن جماعته* ، بالإضافة إلى العامل الاجتماعي –أي التسلط – لا سيما إذا كان مصدره الأسرة أو أية سلطة دينية أو عرقية محددة، غير أن

* إن عديد الدراسات الحديثة، لاسيما منها الدراسات السيكولوجية تؤكد أن التقديس حاجة نفسية، فالإنسان يميل إلى سد أبواب القلق والانفعال النفسي الناجم عن جهل الإنسان للكون والواقع، وهذا الاعتقاد ينتج مسألتين: الأولى أن الإنسان غالبا ما يميل إلى تقديس تراث أجداده، تقديسا شاملا أو جزئيا، والثانية أن الجماعة تميل بدورها إلى تقديس أفكارها، واعتماد التبريرات الفكرية المنطقية والغير منطقية في ذلك، ليشكل تراثها كتلة إيديولوجية متراصة الأجزاء، ومن الأمثلة التاريخية التي تثبت ذلك، إنكار أقوام الأنبياء والرسل لمفهوم الإله الواحد، وتقديسهم لعقائد أسلافهم، وكذلك وعلى نفس الشاكلة محاربة الجماعة للأفكار الجديدة، التي تخالف ما تواضعت عليه الجماعة، وهذا مستدل عليه في النص القرآني في العديد من المواضع، منها قوله تعالى في الآية 106 من سورة المائدة: {وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا لا يهتدون}، وفي الآيات51 و52 و53 من سورة الأنبياء : { ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين}، وفي الآية 169 من سورة البقرة:{وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا}...

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

النقطة المشتركة بين هذه الرؤى، هي أنه أي التنميط ليس تثاقفا، بل إنه عدو التثاقف، ووسيلة من وسائل القضاء على استمرارية الثقافة.

أما على المستوى الحضاري فالتاريخ الإنساني قد عرف أشكال تنميط متعددة، مارستها السياسات الكولونيالية التي واكبت عصر النهضة إبان القرنين 14 والـــ15، وعصر الأنوار إبان القرنين 16 و17، معتمدة أبحاث ونظريات العلوم الاجتماعية المؤدلجة في خدمة سياسات التوسع الكولونيالية بالتمهيد لها أو تبريرها، والتي عملت على أن يتم تلقين المستعمرات قسرا ثقافة المستعمر ومحاربة كل أشكال الممارسات المحلية، وعند الإقرار بالتنوع والاختلاف، فإن الاختلاف يكون على أساس تصنيفي من الأدنى إلى الأعلى، أي من المتحضر إلى المتوحش، هذه السياسات مورست عند الإغريق والرومان من قبل، والتي كانت تدعوا الشعوب ذات الثقافات المغايرة بالشعوب المتوحشة أو البرابرة [1].

ثم إن العولمة المعاصرة تعتبر من وجهة نظر أنثروبولوجية آخر ممارسات التنميط في شكله المعاصر، من حيث انها تكرّس ثقافة الشعب الغالب على حساب الخصوصيات المحلية، مستندة في ذلك على تبريرات إيديولوجيا ومصالح متعددة.

4. التنميط ليس التثاقف:

لقد سبق وأن أشرت أن الهدف من التثاقف عدم حاجة الفرد إلى أن يبدأ من الصفر، وتحرص الجماعة إذن على تزويده بمجموعة الضوابط التي على أساسها يضمن حياة أسهل، وتمثل الجماعة مصدرا معرفيا موثوقا وآمنا، يلقن النشء الكيفية التي يجب أن يتعامل بها مع العناصر الأخرى، ما يدعوه علماء الاجتماع بالضمائر*، سواء المحيط

[1] – أنظر: المسألة الثقافية، محمد العربي ولد خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2003م، ص 30 إلى 33.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

الخارجي، أم المجتمع حوله، وهذا الوضع في حقيقة الأمر لا يختلف فيه الإنسان عن سائر الحيوانات، ذلك أنها تمارس نفس عملية التلقين تقريبا، والتي غايتها ووظيفتها التأقلم والتكيف مع العالم، إذن فالغاية واحدة، لكنها عند الحيوان فطرية، أما عند الإنسان فهي متطورة متغيرة.

ثم إن التثاقف يفسح المجال لرؤية ذاتية داخل الاجتماع الإنساني، وتدفع جهود أعضاءه أفرادا وجماعات عجلة التطور الفكري، والعقدي، والصناعي، والاجتماعي، بل إن التثاقف يرفع مستوى المجتمعات، لأنه ببساطة يطوّر من المكاسب السابقة ويحيّنها، وهو بهذا المعنى يضمن استمرارية المسار الحضاري للمجتمعات.

وعلى النقيض فإن التنميط يقوم على صهر الذات في المجموعات، ومحو ما يشي بخصوصيتها، وهويتها المتميزة، فيمسي الأفراد مخلوقات لا لون لها، متماثلة في كل شيء، مبتذلة، من دون سمات أو خصائص فارقة[1]، وتمتد آثار هذا الفعل وتبعاته على المستوى الحضاري، من حيث أنه يقف في وجه الإبداع.

إن الاجتماعات التي تزداد فيها وتيرة التغير، تكوّن مجتمعات أكبر، وتنخرط فيها عديد الثقافات، لأن حق الاختلاف فيها مكفول، غير أن الاجتماعات التي تقل فيها نسب التغير، أقصد من ناحية احترام التعددية، فيكون لحاقها بركب الحضارة أبطأ، وتاريخ الإنسانية يثبت أن الحضارة لا تقوم لا تستمر وتزدهر، إلا إن استطاعت أركانها التجانس.

[1] – عبد الجبار الرفاعي، الدين والظمأ الأنطولوجي، مركز دراسات فلسفة الدين، ط1، 2016م.، ص 18.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

5. إقصاء الفعالية العقلية للإنسان

عندما يلجأ المجتمع الواحد أو المجموعة العرقية إلى إتباع نمط التثقيف القسري أو التنميط الثقافي والفكري، الذي تزداد حدته كلما كانت الشعوب أشد انغلاقا أو انعزالا، لا يكون للفرد أية فرصة في استخدام عقله لاسيما في مسائل صارمة اجتمعت عليها المجموعة على أنها كذلك، وتعتبر أية محاولة للتملص من قانون الجماعة ومعتقداتها وأفكارها خيانة وتمردا، حتى في أبسط أشكالها.

وتتمثل خطورة التنميط أيضا في أنه يوهم بتوحيد الصفوف للجماعة كلها في نمط واحد، لكن غالبا ما سيولد عند أفرادها تمجيد الذات والتقليل من شأن الآخرين من أفراد الجماعات الأخرى، وهذا منتج الصراع، وأحد بواعثه الأساسية.

ومن جهة أخرى، فإن التنميط يقضي على الفاعلية العقلية التي فطر عليها الإنسان فغالبا ما تتجاهل أدبيات الجماعات والأحزاب فردية الكائن البشري، ولا تتحدث عن الهوية الشخصية (وهو ما يبدو ماثلا في أدبيات الأحزاب اليسارية، القومية، والجماعات الإسلامية حاليا)، وتتعاطى مع الفرد بوصفه عنصرا يذوب في مركب هو الجماعة، ليس له وجود حقيقي مستقل عن إطارها، وتشدد في مقولاتها وشعاراتها وتربيتها، على أن مهمة كل شخص في الحياة هي: الامتثال لما يؤمر به التنكر لذاته، والذوبان في المركب".[1] مسألة تنميط النشء، تزيد الإنسانية اختلافا عن اختلاف، هذا من جهة، من جهة أخرى فمساعي هذا المجتمع ستبوء سريعا بالفشل، لأن التناسخ الفكري بالنسبة للشخصية الإنسانية غير ممكن، هذا مما سبق الإشارة إليه، وهو يوافق ما أورده الصحابي علي رضي الله عنه، حينما قال: "ربوا أبنائكم لجيل غير جيلكم".

[1] – عبد الجابر الرفاعي، مصدر سبق ذكره، ص17.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

6. الخاتمـــة:

تعتبر مسألة الثقافة من الإشكاليات التي أرّقت الشعوب على اختلافها وتعددها، فالبحث عن تهذيب صراع حدي الوحدة/ التعدد لا يزال قائما، على الرغم من تأكيد البحوث الحديثة في علوم الإنسان والاجتماع –وعلى رأسها الأنثروبولوجيا– على بديهية الحرية الفكرية وعلى شرعية الاختلاف الثقافي للشخص الإنساني.

إن مآزق الثقافة الإنسانية، تكمن في غياب الوعي بحتمية الحرية الفكرية من جهة، وبالفروق الكامنة بين ممارسة التثاقف وفرض التنميط، وما يبرر ذلك هو تصاعد وتيرة النزاعات والصدامات بين شعوب العالم من جراء الإصرار على أدلجة وتنميط الإنسان، الذي لابد له من حيث طبيعته العاقلة والمفكرة أن يترفّع عن أية وصاية فكرية كانت أم ثقافية.

7. المراجـــع:

●التراث والاختلاف، عبد السلام بنعبد العالي، هايدغر ضد هيغل، دار التنوير، بيروت، ط2، 2006.

●المدينة سرابها ويقينها، جورج باستيد، تر: عادل العوا، مطبعة جامعة دمشق، 1965.

●الدين والظمأ الأنطولوجي، عبد الجبار الرفاعي، مركز دراسات فلسفة الدين، ط1، 2016م.

●المسألة الثقافية، محمد العربي ولد خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2003م.

●الاستنساخ والانجاب، بين تجريب العلماء وتشريع السماء، كارم السيد غنيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد:02 السنة:2021 الصفحة:611– 634 تاريخ النشر:21–10–2021

●البدو والبداوة، محي الدين صابر ولويس كامل مليكة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1986.

●النزعة الإنسانية في الدين، عبد الجبار الرفاعي، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ط2، 2013م.

●الأنثروبولوجيا، نخبة من أعضاء التدريس، تر: محمد عباس إبراهيم، دار المعرفة الجامعية، 2003م

●نزعة الآنسة، جيل مسكويه والتوحيدي محمد أركون، تر:هاشم صالح، دار الساقي، ط1، 1997.

●مدخل إلى علم الإنسان، عيسى الشماس، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004م.

●وهم الإلحاد، أحمد الحسن، شركة نجمة الصباح، بغداد، ط1، 2013م.

●معجم الفلسفة، محمود يعقوبي، دار الكتاب الحديث، 2008 م.

●موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب، جيرار جهامي، ناشرون، مكتبة لبنان، دت.

• Anthropologie philosophique, Bernard Groethuysen, librairie gallimard, Parie NRF, 1952.

• Anthropologie, Religions africaines et christianisme, René Bureau, Ed Kharthala, Paris, 2002.